الفصل الثالث

لماذا لا تنطلي الأكاذيب؟

لا تنطلي الأكاذيب على الآخرين لأسباب عدّة؛ فقد تكتشف ضحية الخداع بالمصادفة دليلاً على الكذب، كوثائق مخبأة، أو آثار أحمر شفاه على منديل الزوج، أو قد يفضح المخادعَ زميلٌ حسود، أو زوج تمّ التخلي عنه، أو مخبر مُستأجَر، وهذه جميعها مصادر رئيسة للكشف عن الخداع. ولكن ما يهمنا هو الأخطاء المقترفة في أثناء عملية الكذب، الأخطاء التي يرتكبها الكاذب على الرغم منه؛ فسلوكه قد يوقعه، وقد تظهر عليه دلائل خداع، أو تسرب. مثال ذلك، تغيـر في تعابير الوجه، أو حركة الجسم، أو نبرة الصوت، أو تورّم في الحلق، أو تنفس عميق أو سطحي، أو وقفات طويلة في أثناء الحديث، أو زلات لسان، أو تعبير دقيق جدّاً في الوجه، أو إيماءة منسلّة. والسؤال هو: لِمَ لا يستطيع الكاذبون منع هذه الزّلّات السلوكية من الظهور؟ قـد يفعلون ذلك أحياناً، فبعضـ الأكاذيب تُؤدّى بإتقان، فلا يفضـح الكذبة شيء مما يقوله الكاذب أو يفعله، ولكن ذلك ليس ديدن الأكاذيب جميعها. لذلك سببان هما: التفكير والشعور.

عبارات سيئة

لا يتوقـع الكاذبـون الوقت الذي يحتاجـون فيه إلى الكذب. وفي العـادة، لا يكون هناك وقت لتحضير العبارة المراد قولها والتدرّب عليها وحفظها. روث مثلاً، لم تتوقع في الحادثة التـي استشهـدت بها في روايـة أبدايك (**تزوجينـي**) أن يسمعها زوجها تتحـدث بالهاتف مع عشيقها.

obeikandl.com

فتفضحها قصة التحايل التي تخترعها، وما تقوله: إن الاتصال من معلمة في مدرسة الأحد تسأل بشأن تسجيل ولديها فيها في الحال؛ لأنها لا تتناسب مع ما سمعه زوجها من حديث بينها وبين عشيقها.

ربما لا يكون الكاذب ذكيّاً بتوقع الأسئلة التي يمكن أن تُطرح عليه جميعها، فيفكر في إجابات، ويلفّق عبارات كاذبة بعناية، حتى بوجود إشعار مسبق. وحتى الذكاء قد لا يكون كافياً؛ لأنّ التغييرات غير الملحوظة في ظروف معينة قد تكون كاشفة لكذبه، ففي أثناء التحقيق في قضية ووترجيت، وصف القاضي الاتحاديّ (الفيدرالي) جون ج. سيريكا مثل هذه المشكلة في تفسيره لردود فعله على شهادة فريد بزهارت المستشار الخاص للرئيس نيكسون: أول مشكلة واجهها فريد بزهارت في محاولته تفسير سبب غياب الأشرطة هو جعل إفادته متّسقة. في يوم افتتاح الجلسة، ذكر بزهارت عدم وجود أشرطة اجتماع الرئيس الذي جرى في 15 من إبريل مع دين؛ لأنّ المؤقت فشل في التسجيل، ولكنه راجع تفسيره قبل فوات الأوان (فقد علم أنّ بعض القرائن التي قد تنكشف يمكنها بيان أنّ المؤقتات كانت في الواقع على ما يُرام) فقال: إنه لم يُسجَّل لقاء الرئيس مع دين في 15/4؛ بسبب امتلاء الشريطين المتوافرين بعد مضي نهار حافل من الاجتماعات المسجلة[1]، وحتى عندما لا يجبر الكاذب على تغيير عباراته على وفق الظروف، فقد يفشل بعض الكاذبين في تذكّر العبارات التي ألزموا أنفسهم بها سابقاً؛ بحيث يكون هناك تناقض بين الإفادتين؛ السابقة والحالية على الأسئلة نفسها.

ينتجُ – من أيّ إخفاق في توقع وقت الحاجة إلى الكذب، وعدم القدرة على تلفيق عبارة مناسبة لتغير الظروف، وعدم القدرة على تذكر الإفادة التي تبنّاها الشخص من قبل– قرائنُ خداعٍ يمكن اكتشافها بسهولة، إنّ ما يقوله الكاذب قد لا يوافق بعضه بعضاً، أو قد يتناقض مع الحقائق الرّاهنة، أو التي تُكْتَشَفُ لاحقاً.

لا تكون القرائن الواضحة على الخداع دائماً موثوقة ومباشرة كما تبدو، وربما دلت العبارة السلسة جدّاً على وجود رجل مخادع متدرب جدّاً، ولجعل الأمور أكثر سوءاً، قد يرتكب بعض الرجال المخادعين أخطاءً صغيرة عن قصد حتى لا تبدو الكذبة سلسة جدّاً.

وصف المحقق الصحفي جيمس فيلان حادثة مذهلة لهذه الحيلة في تفسيره لخدعة السيرة الذّاتية الخاصة بهاورد هيوز.

لـم يَرَ أحد هيوز منذ سنوات، فأضاف ذلك المزيد من انبهار الجمهور بهذا المليونير الـذي أنتج أفلاماً، وامتلك شركة طيران وأكبر بيـت للقمار في لاس فيغاس أيضاً، لم يظهر هيـوز منـذ مدة طويلة، ما جعل بعضهـم يتساءل عمّا إذا كان الرجل حيّـاً أم ميتاً، وكان من المذهـل أن يوكل شخص منعزل لهذه الدرجة لكتابـة سيرته الذّاتية، ومع ذلك، فإنّ هذا ما ادعـى كليفورد إيرفنج إنتاجه، لقد دفع ماكجرو هيل لإيرفنـج سبع مئة وخمسين ألف دولار لنشـر السيرة، في حيـن دفعت مجلة **الحيـاة** مئتين وخمسين ألـف دولار لنشر ثلاثة أجزاء منهـا، وتبين فيما بعـد أنها مزيفة! لقد كان كليفورد إيرفنـج «.... شخصاً مخادعاً عظيماً، بـل أكثرهم دهـاء. وإليكم مثالاً على ذلك: عندما استجوبنا الرجـل محاولين الحصول منه على اعتراف بالتّزييف، لم يسرد قصته بالطريقة نفسها في كلّ مرة. بل كان فيها اختلافات يسيـرة، وعندما نقع على خطأ ما يعترف بـه بصراحة. يُعِدّ الرجلُ المخادعُ متوسطُ الحنكة قصتَـه بدقّـة كي يستطيع سردهـا أكثر من مرّة كما رواها من قَبْـل. يرتكب الرجل الصادق القليـل من الأخطاء وخصوصـاً فيما يتعلق بقصة طويلة ومعقدة مثـل قصة كليف، لقد كان كليـف ذكيّـاً، فقد عرف ذلك وقـدم انتحالاً رائعاً لرجـل صادق، وعندما كنـا نمسك بشيء يبـدو مُديناً له، كان يقول بصراحة: غريـب، إنّ ذلك يسيء لي، أليس كذلك؟ ولكن هذه هي الطريقـة التي سلكها. لقد نقل لنا صورة كونه صريحاً حتى لو ضرّه ذلك، في حين كان يلفّق كذبـة تلو أخرى[2]». لا توجد هنـاك وسيلة ضد مثل هذا الذكاء؛ فمعظم الرجال المخادعين المهرة ينجحون بخدعهم، إضافة إلى أن معظم الكاذبين ليسوا مراوغين.

قد ينجم عن عدم الاستعداد أو الإخفاق في تذكر عبارة تبناها الكاذب سابقاً، قرائنُ خداع لكيفية سرد العبارة حتى لو انعدم الاتساق فيما يُقال، وقد تكون الحاجةُ إلى التفكير في كلّ كلمة قبل نطقها، ووزن الاحتمالات، أو البحث عن كلمة أو فكرة، واضحةً في الوقفات عند الحديث، أو بدقة أكبر في شدّ الجفن السفلي أو الحاجب، وبعض تغييرات الإيماء، (كل ذلك موضح بالتفصيل في الفصلين الرابع والخامس)، ولكن لا يُعدّ التفكير بكلّ كلمة بعناية قبل نطقها علامة على الخداع دائماً، ولكنها كذلك في بعض الظروف، فعندما سأل

جيري زوجته روث عن الشخص الذي كانت تتحدث معه على الهاتف، فقد تشير أيّ علامة لاختيارها الكلمات بعناية إلى أنها كانت تكذب.

الكذب بشأن العواطف

إنّ الإخفاق في التفكير مقدماً، والتخطيط الكامل، والتدرب على العبارة المزيفة من أحد الأسباب التي ترتكب فيها الأخطاء التي تقدم قرائن الخداع عند الكذب، وترتكب الأخطاء أيضاً بسبب صعوبة إخفاء تصوير العواطف أو تزويرها، فلا تنطوي الأكاذيب جميعها على العواطف، ولكن التي تنطوي منها على العواطف تتسبب في مشكلات خاصة للكاذب، فمن الممكن محاولة إخفاء العواطف عند الإحساس بها بالكلمات، باستثناء زلات اللسان التي لا يمكن تجنبها وتزويرها. وما لم تكن هناك رغبة في الاعتراف بالشعور، فعلى الكاذب عدم صياغة العاطفة المخفية بالكلمات. وبذلك تكون خياراته أقلّ في إخفاء تعبير الوجه، أو التنفس السريع، أو التشديد في الصوت.

عندما تُستثار العاطفة، تحدث التغيرات تلقائيّاً دون اختيار أو تعمد، وتبدأ هذه التغيرات بجزء من الثانية فقط؛ ففي قصة (**تزوجيني**)، عندما يتهم جيري روث بالكذب، لا تجد روث مشكلة في إيقاف ردّها: نعم، ذلك صحيح، من الانطلاق من بين شفتيها، ولكن الخوف يتملّكها بسبب ذعرها بشأن فضح علاقتها، وهذا يؤدي إلى ظهور علامات مرئية ومسموعة، فهي لم تختر الشعور بالذعر، ولا تستطيع اختيار إيقاف الشعور بالكذب، فذلك خارج عن نطاق سيطرتها. وأعتقد، أنّ ذلك أساسي في طبيعة التجربة العاطفية.

لا يختار الأشخاص وقت شعورهم بالعاطفة. وفي العادة، يختبرون بدلاً من ذلك وقعها السلبي عند حدوثها معهم، وفي حالة العواطف السلبية، كعاطفة الخوف أو الغضب، فقد تحدث على الرغم منهم، لا يقتصر الأمر على قلة الخيارات بوقت الشعور بالعاطفة، ولكنّ الأشخاص يشعرون عادة بعدم وجود خيارات كافية عمّا إذا كانت العلامات التعبيرية للعاطفة ظاهرة للآخرين أم لا، فلم تستطع روث ببساطة أن تتخلص من أيّ من علامات ذعرها، إذ لا يوجد زرّ استرخاء يمكنها الضغط عليه لإخفاء تفاعلاتها العاطفية، وقد لا يكون ممكناً أيضاً السيطرة على أفعال الشخص إذا كانت العاطفة الصّادقة قوية جدّاً، فالعاطفة القوية

تفسـر الأفعـال غير اللائقة حتى لو كانت لا تقدم عذراً مقبـولاً، مثل: لم أقصد الصراخ (أو ضرب الطاولة، أو إهانتك، أو ضربك) ولكني فقدت أعصابي، وفقدت السيطرة على نفسي.

عندمـا تبدأ العواطـف بالحدوث تدريجيّاً بـدلاً من حدوثها فجأة، حتـى لو بدأت عند مستـوى منخفض، كالشعور بالانزعاج بدل الغضـب، تكون التغيّرات التي تحدث في السلوك طفيفـة صغيرة، وسهلـة الإخفاء نسبيّاً إذا كان الشخص مدركاً لمـا يشعر به، ولكن لا تكون الحـال كذلك مع الناس جميعهـم؛ فعندما تبدأ العاطفة بالتدريـج وتبقى طفيفة، فقد تكون ملحوظـة أكثـر للآخرين منها للذات، فلا تسجل في الوعي مـا لم تصبح أكثر حدّة، وعندما تصبح العاطفة قوية، فستكـون السيطرة عليها أصعب بكثير، ويتطلب إخفاء تغييرات الوجه والجسـم والصـوت معانـاة، فحتى عندمـا ينجح الإخفاء فـي عدم إظهـار العواطف، تكون المجاهـدة بذاتها أحياناً ملحوظةً بوصفها دليلاً على الخـداع. إنّ إخفاء العاطفة ليس أمراً سهـلاً، وكذلك تزوير مظهر العاطفة غير الصّادقـة، حتى عند عدم وجود أيّ عاطفة أخرى لا بدَّ من إخفائها.

ويتطلـب الأمـر أكثر من قول: أنـا غاضب. أو: أنـا خائف. وعلى المخـادع أن يبدو أنه غاضـب أو خائف إذا كان يريد أن يصدق الآخرون ادعاءه. ليس من السهل تجميع الحركات المناسبة، ونبرات الصوت المطلوبة لتزوير العواطف، هناك حركات معينة للوجه لا يستطيع تأديتها إراديّاً إلا عدد قليل فقط . (سيرد الحديث عنها في الفصل الخامس)، وتعد الحركات صعبة الأداء حيوية للتزوير الناجح لمشاعر اليأس، والخوف، والغضب.

يصبح التزوير أكثر صعوبة عندما تكون الحاجة إليه ماسّة جدّاً، وذلك للمساعدة على إخفـاء عاطفـة أخرى، إنّ محاولة الظهور بمظهر الغاضب ليـس سهلاً، ولكن إذا كان هناك شعـور بالخوف عنـد محاولة الظهور بالغضـب، فسوف يحيّر ذلك الشخصـ الآخر. تنطلق مجموعة من الاندفاعات الناجمة عن الخوف باتجاه ما، في حين تتجه المحاولات المتعمدة للظهور بمظهر الغضب في اتجاه آخر؛ فالحواجب تنجذب إلى الأعلى في حالة الخوف، ولكن لتزويـر الغضـب تتجه نحو الأسفل. عـادة، تفضح علامات الصراع الداخلـي بين العواطف الصّادقة والزائفة الخداع.

ولكـن ماذا عن الأكاذيب التـي لا تشتمل على العواطف، أكاذيـب الأفعال، أو الخطط، أو الأفكار، أو النّيّات، أو الحقائق، أو الخيالات؟ وهل يفضح سلوك الكاذب هذه الأكاذيب؟

عاطفة الكذب

لا تنطـوي الخدع جميعها على إخفـاء العواطف أو تزويرهـا، فالسارقة تخفي سرقتها الأمـوال، ويخفي صاحب السرقة الأدبية حقيقة انتحاله عمل غيره، والادعاء أنّه من إبداعه، ويخفـي الرجل متوسط العمر – عبثاً – عمره الحقيقي عندما يصبغ شعره الأبيض، مدّعياً أنّـه أصغـر من عمره الحقيقي بسبع سنوات، ولكن عندما تكون الكذبة متعلقة بأمر آخر غير العواطف، ربما تصبح العواطف حينها معنية بالأمر؛ فقد يشعر الرجل متوسط العمر بالحرج بسبب تصابيه، ولكي ينجح في الخداع، عليه إخفاء حرجه إضافة إلى إخفاء عمره الحقيقيّ.

وقـد يشعـر منتحل إبداع غيره بـالازدراء تجاه من يضللهم. لـذا، لا يتعين عليه إخفاء مصـدر عمله، وتظاهره أنّ العمل خاصّ به فقط، ولكن عليـه إخفاء ازدرائه لهم أيضاً، وقد تشعر السارقة بالمفاجأة عندما يُتّهم بريء بجريمتها، ويتحتم عليها إخفاء مفاجأتها أو على الأقل سبب تفاجئها.

وعليـه، تصبح العواطـف مشتركة بالأكاذيب التـي لم تتخذ لغرض إخفـاء العواطف. وبمجـرد اشتراكها، لا بـدّ من إخفاء العواطف إذا كان الهدف عـدم فضح الكذبة. قد تكون أيّ عاطفـة هـي المتهمة، ولكن غالباً ما تتشابك ثلاث عواطـف مع الخداع كي تقدم تفسيراً منفصـلاً، هي: الخوف مـن الانكشاف، والشعور بالذنب من جـرّاء الكذب، والبهجة بخداع المتلقّي.

الخوف من الانكشاف

إنّ الخـوف من الانكشـاف بصورته الأكثر اعتدالاً غير مزعـج للكاذب، ولكنه بدلاً من ذلك قد يساعده على تجنب الأخطاء من خلال جعله متيقظاً. قد ينتج مستوى الخوف المعتدل **علامـات سلوكية** تصدر عن الكاذب الماهـر، وعندما يكون هذا الخوف من الانكشاف قويّاً

فإنــه سينتج ما يخشــاه الكاذب تماماً. فإذا كان الكاذب قــادراً على تقدير مدى الخوف من الانكشــاف الذي سيشعر به لدى شروعه في الكذب، فإنّه يستطيع تقدير ما إذا كانت الكذبة تستحــق المخاطرة أم لا. وحتــى لو كان فعلاً منهمكاً في قول الكــذب، فربما يساعده تقدير مــدى خوفه مــن الانكشاف على التخطيط لتدابيــر مضادة للحدّ من خوفــه أو إخفائه. هذه المعلومة تساعد كاشف الكذب أيضاً؛ إذ يمكنه أن ينتبه للبحث عن علامات الخوف إذا كان يتوقع أن يكون المشتبه به خائفاً جدّاً من انكشاف أمره.

تؤثــر كثير مــن العوامل في مقدار الخوف من الانكشاف الــذي يشعر به الكاذب، حيث يشيــر العامل الأول إلى مدى رأي الكاذب بقــدرة المتلقّي على اكتشاف كذبه، فإذا عُرف أنّ المتلقّــي خصــم ضعيف، أو شخص بسيط، فلــن يبالي الكاذب كثيــراً بالخوف من افتضاح كذبــه. في المقابل، إذا عُرف أنّ المتلقّي خبير فــي اكتشاف الكذب، ولا ينطلي عليه الخداع بسهولة، فسيعتري الكاذب الخوف من افتضاح أمره.

غالباً ما يقنع الأهل أولادهم أنهم بارعون في اكتشاف الخداع، قائلين: من خلال النظر إلى عينيك أستطيع معرفة ما إذا كنتَ كاذباً أم لا. عندها، يصبح الطفل غير الصادق خائفاً جدّاً من اكتشاف كذبته، فإمّا أن تُفتضح كذبته، أو يُضطرّ إلى الاعتراف؛ لاعتقاده أنّ فرصة انطلاء كذبته ضعيفة.

فــي مسرحية تيرينــس راتيغان (**صبي ونسلو**)، والفيلــم المُقْتَبَس عنها، استخدم آرثر (الوالــد) هــذه الحيلة بحــذر شديد. فبعــد أن سُرِّحَ ابنــه الكبير روني مــن مدرسة التدريب البحرية، واتهامه بسرقة حوالة نقدية، دار بينهما الحديث الآتي:

— آرثــر: تفيــد هذه الرسالة أنك سرقت حوالة. (يفتح روني فمه للحديث، فيوقفه آرثر) لا أريد سماع أيّ كلمــة منــك حتى تسمع ما أريد قوله. روني، إذا سرقتَ فاعترفْ لي، ولن أغضب منك شريطة أن تقول الحقيقة، ولكــن إنْ كذبــت علــيّ، فسأعرف ذلك؛ لأنــك لا تستطيع إخفاء الكذب عنــي، وسأعرف أنك كذبــت يا روني، لا محالة. لذا، تذكر ذلك قبل أن تتفوّه بأيّ كلمة. (يتوقف هنيهة ويعيد السؤال): هل سرقت تلك الحوالة؟

روني (بتردد): لا، يا والدي، لم أفعل.

يتقدم آرثر خطوة نحو روني محدّقاً في عينيه: هل سرقت هذه الحوالة؟

لا، يا والدي، لم أفعل.

يستمر آرثر بالتحديق في عيني روني لحظة، ثمّ يأخذ نفساً عميقاً من الارتياح[3].

يصدق آرثر روني، وتسرد المسرحية التضحيات العظيمة التي يقدمها الأب وباقي أفراد الأسرة للدفاع عن روني.

لا يستطيع الوالدان استخدام إستراتيجية آرثر دائماً للحصول على الحقيقة؛ فالابن الذي كذب مرات عدّة في الماضي، ونجح في خداع والديه، لن يكون لديه سبب للتفكير في أنه لن ينجح ثانية. وقد لا يكون الوالد راغباً في منح الابن العفو عند اعترافه بفعلته، أو قد لا يكون العرض مصدَّقاً بسبب وجود أحداث ماضية تتناقض معه.

على الابن أن يثق بوالده، والتّيقّن من قدرة الوالد على الثقة به أيضاً، إنّ الوالد كثير الشّكّ، وغير الواثق، والذي لم يصدق ابنه أخيراً عندما كان صادقاً، يستثير خوف الابن البريء، ومن شأن ذلك أن يسبب مشكلة حاسمة في الكشف عن الخداع؛ إذ من المستحيل تقريباً تمييز خوف الابن البريء من عدم تصديقه، وخوف الابن المذنب من الانكشاف، حيث تكون علامات الخوف هي نفسها تقريباً.

هذه المشكلات ليست خاصة بالكشف عن الخداع بين الوالدين والأبناء. بل هي مشكلة تكمن في صعوبة التمييز بين خوف البريء من عدم تصديقه من جهة وخوف الشخص المذنب من الانكشاف من جهة أخرى. تتضاعف الصعوبة عندما يتصف الشخص كاشف الكذب بتاريخه أنه متشكك ولم يقبل الصدق قبلاً، وفي كلّ مرة سيكون من الصعب على كاشف الكذب تمييز الخوف من عدم التصديق من خوف الانكشاف. يتعين تقليل ممارسة الخداع والنجاح في الإفلات من خوف الانكشاف، فلن يقلق الزوج الذي يخون زوجته للمرة الرابعة عشرة من الانكشاف كثيراً؛ فهو متمرس بالخداع، ويعلم ما يتوقعه وكيفية تملّصه من الموقف. والأهم من ذلك أنّه يعلم قدرته على الإفلات بالخداع، إنّ الثقة بالنفس تحدّ من خوف الانكشاف، فإذا استمرت هذه الثقة مدّة طويلة، فقد يرتكب الكاذب أخطاءً، وربما يكون بعض الخوف من الانكشاف مفيداً للكاذب أحياناً.

يعمـل جهاز مِكشـاف الكذب بالمبـادئ نفسها لاكتشـاف القرائن السلوكيـة للخداع، وهـو عُرْضـة للمشكلات نفسها؛ لأن اختبـار جهاز الكذب لا يكتشـف الأكاذيب، بل علامات العاطفة التي تختفي وراءها، حيث توصل أسلاك الجهاز بالمشبوه لقياس التغيرات في كمية التّعرّق، ونسبة التنفس، وضغط الدم، ولكنّ الزيادة في ضغط الدم وكمية التعرق بحد ذاتها ليسـت علامات على الخداع، إذ تتعرق اليدان أكثر، وينبض القلب بسرعة أكبر عند استثارة العاطفة.

لذا، يحاول معظم مشغلي الجهاز إقناع المشتبه به قبل إخضاعه للاختبار أنّ الجهاز لا يخطـئ أبداً في كشف الكاذب، مقدمين بذلك اختباراً يُعرف بالمحفّز. تتمثل التقنية الأكثر شيوعـاً في توضيح أنّ الآلة قادرة على معرفة الورقة التي سحبها المشتبه به في لعبة الورق، وبعـد أن يختـار المشتبه به الورقة ويعيدهـا، يطلب إليه الإجابة بِلا فـي كلّ مرة يسأله فيها مشغل الجهاز ما إذا كانت الورقة هي كذا. لا يرتكب بعض مستخدمي هذه التقنية الأخطاء؛ ليسـ لأنّ الجهـاز سيكشف الكـذب لا محالة، بل لأنهـم يستخدمون مجموعـة أوراق معلّمة، ويبـررون خداعهم للمشتبه به علـى أساسين: إذا كان المشتبه به بريئاً فمن المهم أن يعتقد أنّ الجهـاز لن يرتكب خطأ، وإلا فإنـه قد يُظهر الخوف من عدم التصديق. وإذا كان مذنباً، فمن المهم جعله يشعر بالخوف من الانكشاف، وإلا فإنّ الجهاز غير فاعل. لا يستعمل معظم مشغلي الجهاز هذه الخدعة، ويعتمدون على الجهاز لاكتشاف البطاقة التي تم سحبها[4].

هـذا ما ورد في (**صبي ونسلو**) تماماً، إذ يجب على المشتبه به تصديق قدرة مكتشف الأكاذيـب، وعادة ما تكون علامـات الخوف غامضة ما لم تكن الأمـور مرتبة لجعل الكاذب فقط هو الذي يخاف، دون إخافة الصادق. وتخفق اختبارات الكشف عن الكذب، لا لأنّ بعض الأشخاص البريئين يخافون من اتهامهم ظلماً، أو لأنهم لأسباب أخرى ينزعجون عندما يتم اختبارهم، بل بسبب عدم تصديق بعض المجرمين قدرة هذا الجهاز أيضاً، هم يعلمون أنهم يستطيعون الإفلات بكذبهم، وإذا عرفوا ذلك، فمن المرجح أنهم يستطيعون الإفلات فعلاً.*

* يعتقد بعض خبراء الكشف عن الكذب أنّ معتقدات المشتبه به بشأن دقة الجهاز غير مهمة. ستناقش هذه الموضوعات وغيرها بشأن اختبار الكشف عن الكذب وكيفية مقارنته مع القرائن السلوكية في كشف الكذب في الفصل السابع.

obeikandl.com

يتمثل التشابه الآخر مع قصة (صبي ونسلو) في محاولة مشغّل جهاز الكشف عن الكذب الحصـول على اعتـراف، مثل ادعاء الوالد امتلاكه قوى خاصة لكشف الكذب لكي يحثّ ابنه على الاعتراف إذا كان مذنباً.

لـذا، يحاول بعض مشغلي الجهاز استخلاص اعتراف من خـلال إقناع المشتبه به أنه لا يستطيـع التغلب على الجهاز. فإذا لم يعترف المشتبه به، يقوم بعض مشغلي جهاز الكذب بتخويفه؛ بإخباره أنّ الجهاز قد اكتشف عدم صدقه، وبزيادة الخوف من الانكشاف، يُؤمل أن يعتـرف المشتبه به. يعاني البريء الاتهامات الباطلة، ولكن يُفترض أن يُبرَّأ، ولسوء الطالع، يؤدي هذا الضغط إلى الحصول على اعتراف البريء كي يرتاح.

لا يمتلـك مشغلـو جهاز الكشف عـن الكذب خيـار الوالدين في الحثّ علـى الاعتراف مـن خلال الصّفح عـن الجرم المقترف إذا ما تمّ الاعتراف به، وهـذا ما يفعله المحققون، تقريبـاً مـع المجرمين؛ بعرضهم جعل العقاب أقلّ شدّة في حـال اعتراف المشتبه به، وعلى الرّغم من عدم قدرة المحققين على تقديم العفو الكامل، فقد يقدمون عفواً نفسيّاً على أمل انتـزاع اعتراف من خلال الإشارة إلى عدم حاجـة المشتبه به إلى الشعور بالخزي لاقترافه الجريمـة، أو حتـى إنـه غير مسـؤول عنها، قـد يفسّر المحقـق بتعاطف أنه يجـد للجرم ما يسوّغـه، وأنه سيقوم به شخصيّاً فيما لـو تعرّض للوضع نفسه الذي تعرّض إليه المُسْتَجْوَب، ويتمثـل الاختلاف الآخر في تقديم تفسير يحفظ مـاء وجه المشتبه به بشأن دافع الجريمة، والمثـال الآتي مقتطف من تحقيق مسجّل مـع مشتبه به بالقتل، والذي كان بالمناسبة بريئاً. يتحـدث المحقّق مع المشتبه به قائلاً: في بعض الأوقات، وبسبب الظروف، والمرض، وكثير مـن الأسباب الأخرى، لا يسلك الأشخاص الطريق المستقيم والصعب. وأحياناً، لا نستطيع التّحكّـم فيمـا نفعل. وفـي أحيان أخرى، نقـوم ببعض الأفعـال في لحظة انفعـال، أو لحظة غضـب، أو ربما بسبب عدم التفكير في بعض الأمور بالطريقة الصحيحة، ويريد الأشخاص الطبيعيون تصويب السلوكات التي نعلم أننا أخطأنا فيها[5]».

ناقشنا حتى الآن كيفية تأثير سمعة كاشفي الأكاذيب في عدم التمييز بين خوف الكذاب من انكشاف أمره، وخوف البريء من عدم تصديقه. ويتمثل العامل الآخر المؤثر في الخوف من الانكشاف في شخصية الكاذب، حيث يجد بعض الأشخاص صعوبة في الكذب، في حين

يستطيع آخرون القيام بذلك بسهولة. لذا، هناك كثير مما نعرفه عن الأشخاص الذين يستطيعون الكذب بسهولة مقارنة مع أولئك الذين لا يستطيعون، وقد وجدت القليل عن هؤلاء الأشخاص في بحث إخفاء العواطف السلبية.

عام 1970م، بدأتُ سلسلة من التجارب للتحقق من قرائن الخداع التي اكتشفتُها عندما حلّلت فيلم المريضة ماري التي ورد وصف كذبها في الفصل الأول. تَذكّر أنّ ماري أخفت معاناتها ويأسها كي يمنحها الطبيب إذن خروج في نهاية الأسبوع، وعند عدم وجود رقابة عليها، كانت ستقدم على الانتحار. كان عليّ البحث عن أكاذيب مشابهة قام بها أشخاص آخرون؛ كي أعرف ما إذا كانت قرائن الخداع التي وجدتها في فيلم ماري يمكن أن تظهر لدى الآخرين. وكان أملي في العثور على عدد كافٍ من الأمثلة السريرية ضعيفاً. وعلى الرغم من الشّكّ أنّ المريض قد كذب، فإنّ التأكّد من ذلك صعبٌ جداً، إلاّ إذا اعترف المريض كما فعلت ماري. وكان خياري يتمثل في ابتداع حالة تجريبية على غرار كذبة ماري، أستطيع من خلالها دراسة الأخطاء التي يرتكبها الآخرون عندما يكذبون.

حتى تكون هذه التجربة ذات علاقة بتجربة ماري، يجب على الأشخاص الخاضعين للتجربة أن يشعروا بعواطف سلبية قوية، وأن يُحفّزوا كثيراً لإخفاء هذه العواطف. للوصول إلى هذه العواطف السلبية القوية، عرضتُ أفلاماً تحوي مشاهد جراحية طبية مليئة بالدّماء، وطلبت إلى الأشخاص الذين شاهدوها إخفاء أيّ علامات مرتبطة بعواطفهم في أثناء المشاهدة، فشلت التجربة في البداية. ولم يحاول أيّ منهم بجدّ لضمان نجاحها، ولم أكن أتوقع مدى صعوبة حثّ الأشخاص على الكذب في المختبر، ما أحرجهم كذلك هو علمهم أنّ مجموعة من العلماء تراقبهم وهم يسيئون التصرف. في العادة، لا يوضع الكثير على المحكّ عندما يكذب الأشخاص في مثل هذه المواقف التجريبية. لذا، لم يحاول أفراد العينة الكذب بالقوة نفسها مقارنة بالحياة الفعلية عندما يكون الأمر مهمّاً. وعليه، اخترت طالبات تمريض للعينة؛ لأنّ هناك أهمية كبيرة بالنسبة إليهن للنجاح بمثل هذه الكذبة، وعليهن القدرة على إخفاء عواطفهن السلبية التي يشعرن بها عند رؤية المشاهد الجراحية أو غيرها. بتجربتي هذه، قدمت لطالبات التمريض فرصة التدرب على المهارات المرتبطة بمهنة التمريض. والسبب الآخر لاختيار طالبات تمريض كان تجنب المشكلات الأدبية الناجمة عن تعريض

أيّ شخصـ للمشاهد الدموية، فطالبات التمريض اختـرن بأنفسهن مواجهة المشاهد لأنّها من ضمن عملهنّ. وقد زودتهنّ بالإرشادات الآتية:

- إذا كنـتِ تعملين في غرفة طوارئ، وهرعت أمّ تحمل بين يديها طفلاً مشوّهاً تماماً، فـلا تُظْهِـرْنَ حزناً حتى لـو علمتُنَّ أنه متألمٌ جـدّاً، ولديه فرصة ضئيلـة للنجاة، بل عليكنّ الاحتفاظ بما تشعرْن لأنفسِكنَّ، وتُهدئْنَ الأمّ لحين مجيء الطبيب.
- تخيّلْـنَ ما عليكنَ فعله عند اضطراركـنَّ إلى تنظيف براز مريض لا يستطيع التحكم فـي حركة أمعائـه، يشعر ذلك المريضـ بمنتهى الحرج أو الخجل مـن وصوله هذه المرحلة الطفولية، وقد تشعرن بالاشمئزاز، ولكن عليكن إخفاء ذلك الشعور.

هـذه التجربـة، تهيئ لَكُـنّ الفرصة لاختبـار وممارسة القدرة على التحكـم في تعابير عواطفكـنّ. أولاً، ستشاهدْنَ فيلماً سارّاً، يعرض عليكنّ مشاهد لألوان المحيط الزاهية، وفي أثنـاء المشاهـدة، عليكن وصف ما تشعرن بـه صراحة للشخص الذي يجـري المقابلة، ولا يستطيع معرفة الفيلم المعروض. بعدئذٍ، ستشاهدْنَ أكثر المشاهد دموية التي قد تعترضكنّ يومـاً، وفـي أثنـاء المشاهدة، عليكن إخفـاء الشعـور الحقيقي الذي تشعرن بـه حتى يعتقد الشخصـ الذي يجري المقابلة أنكـنّ تشاهدنَ فيلماً سارّاً آخر؛ ويمكنكن الادعاء أنه يعرض مشاهد الأزهار الجميلة من متنزه البوابة الذهبية في سان فرانسسكو.

لقـد اخترنا أسوأ الأفلام التي استطعنا إيجادهـا، وجدنا في الدراسة الأولية أنّ بعض الأشخاصـ كانوا منزعجين جدّاً عند مشاهدة فيلم عـن أشخاص محروقين بشدة، لعلمهم أنه لا يمكن إزالة شدة ألم مريض الحرق بالدواء.

وكان آخـرون منزعجين أكثر بمشاهدة شريط مصوّر لعملية بتر جزئيّ من خلال رؤية كثير من الدم المتدفق. ومن خلال فكرة كيفية شعور ذلك الشخص عند استيقاظه وإدراكه ببتْـر ذلـك العضو. جمعنا الشّريطين معاً، بحيث ظهـر أنّ الشخص الذي تعرض للحرق هو نفسه من تعرض لعملية البتْر، ووجدنا من خلال استخدام هذه الأفلام إلى أيّ مدى تستطيع الطالبات إخفاء العاطفة القوية جدّاً عندما يردْن ذلك أو يُفْرضُ عليهنّ ذلك.

ولأنّ منافسة الدخول إلى مدرسة التمريض في الجامعة قوية، كانت نتائجهن من أعلى النتائج في اختبـارات الإنجاز المتنوعة، وحصلنَ على علامات مرتفعة، وتوصيات شخصية ممتـازة. وعلى الرغم من أنّ المجموعة مختارة، فإنهنّ اختلفن بصورة ملحوظة في قدرتهن علـى إخفاء مشاعرهن. استطاع بعضهن الإخفاء بطريقة لافتة، في حين لم تستطع أخريات الإخفـاء على الإطـلاق. وجدت خلال المقابلة لاحقـاً أنّ عدم القدرة علـى الكذب في أثناء مشاهـدة الأفلام المروعة لم تكن خاصة بتجربتي، فقـد كان لدى بعضهن دائماً مشكلة في الكذب بشأن العاطفة. وكان بعضهن عرضة للخوف من الانكشاف، وكان لديهن خوف عظيم من اكتشاف كذبهن، وكُنّ على يقين أنّ كلّ من ينظر إليهنّ يستطيع معرفة ما إذا كنَّ يكذبْن أم لا، وهـذا ما حصل. أخضعت الطالبات لكثيـر من اختبارات الشخصية الموضوعية، وقد دُهشـت عندمـا وجـدت أنّ اللواتي لديهن مشكلـة كبيرة في الكذب لم تختلـف نتائجهن في الاختبارات عن باقـي المجموعة، وفضلاً على هذه المفارقة، فهنّ لا يختلفنَ عن الأخريات، إضافة إلى أنّ عائلاتهن وأصدقاءهن يعرفون وجود هذه السمة لديهن ويغفرون لهنّ صدقهن.

حاولـت كذلـك معرفة المزيـد عن أقرانهـن، اللواتي يكذبـن ببساطة وبنجـاح كبير، بالفطـرة يعرف الكاذبون مقدرتهـم على الكذب. يعرف ذلك من يعرفهم جيداً. فهم يفلتون من اكتشاف كذبهم؛ بخداع ذويهم، ومدرسيهم، وأصدقائهم، عندما يرغبون في ذلك، فهم لا يشعرون بالخوف من انكشاف أمرهم.

بـل على العكس مـن ذلك، إنّهم واثقـون بقدرتهم علـى الخداع، حيث تعـدّ هذه الثقة بعـدم الشعور بالخوف من الانكشـاف في أثناء الكذب، إحدى السمـات المميزة للشخصية المضطربـة، ولكنهـا الخاصية الوحيدة التـي يتشارك فيها الكاذبـون بالفطرة مع المرضى النفسييـن، وعلى عكس المرضى النفسيين، لم يبدِ الكاذبـون بالفطرة أحكاماً غير صائبة؛ ولم يخفقوا في التعلم من تجاربهم، علاوة على أنهم لم يمتلكوا خصائص المرضى النفسيين الأخـرى: الدّماثـة المصطنعة، وانعدام النـدم والخجل، والسلوك العدوانـيّ دون وجود ندم واضـح، والأنانية المرضية، والعجز عـن الحب[6]». (سأشرح بالتفصيـل كيف يفضح الندم والخجل الخداع لاحقاً عند دراسة ذنب الخداع).

لـم يختلف الكاذبون بالفطرة في تجربتـي عن الآخرين في نتائج اختبارات الشخصية الموضوعية المتنوعة، فلم تظهر نتائجهم أثراً لوجود الشخصية المضطربة، ولم يكن هناك سلوك عدوانيّ للمجتمع في تكوينهم، وعلى عكس المرضى النفسيين، لم يستخدم الكاذبون بالفطرة قدرتهم لإيذاء الآخرين.* وعلى الكاذبين بالفطرة، والمهرة في الخداع ممن لديهم ضميـر حيّ، إدراك قدرتهم على الاستفادة من مواهبهم في بعض المهن كالتمثيل، أو البيع، أو المحاماة، أو التفاوض، أو التجسس، أو الدبلوماسية.

يهتم طـلاب الخدع العسكريـة بصفات الأشخاص الذين يستطيعـون الكذب بمهارة ويقولـون عنهـم: يجب أن يكـون ذهنهم مرنـاً توافقيّاً، يعمل مـن خلال تفكيـك الأفكار، أو المفاهيم، أو الكلمات إلى مكوناتها الأساسية، ثم يعيدون تجميعها بطرق عدة. (يمكن العثور علـى مثال لهذا النوع من التفكير في لعبة السكرابـل). لا يستطيع أعظم مستخدمي الخداع السابقيـن، مـن ذوي القدرة الفرديـة العالية والمنافسـة، التوافق مع المنظمـات الكبيرة، ويميلـون إلى العمـل بمفردهم، وهم مقتنعون بتفـوق آرائهم الخاصـة، ويتوافقون في بعض الطرق مع الشخصية المفترضة للفنان الانعزاليّ غريب الأطوار البوهيمي، ولكن الفن الذي يمارسونـه مختلـف تماماً، وهذا هو القاسـم المشترك الوحيد لكبـار ممارسي الخداع مثل: تشرشل، وهتلر، وديان، وت.ل. لورنس على ما يبدو[7]».

قد يحتاج هؤلاء «المخادعون الكبـار» إلى مهارتين مختلفتين تماماً؛ المهارة المطلوبة للتخطيط لإستراتيجية مخادعة، والمهارة المطلوبة لتضليل الخصم عند لقائه وجهاً لوجه، على ما يبدو، امتلك هتلر المهارتين معاً، ولكن من المفترض أن يتفوق الشخص في إحداهما

* يقوم المجرمون من المرضى النفسيين بخداع الخبراء، يقول روبرت ريسلسر، المشرف على وحدة العلوم العسكرية في مكتب التحقيقات الاتحادي، والذي قابل ستة وثلاثين قاتلاً متعدد الجرائم: يبدو معظمهم طبيعيين في مظهرهم وحديثهم. واستنتجت آن رول؛ ضابطة شرطة سابقة، وطالبة بعلم النفس، ومؤلفة لخمسة كتب في القتل المتعدد، وجود إشارات طفيفة غير دائمة في دماغ القاتل المتعدد، عندما وجدت نفسها في موقف مروع وهي تعمل مع تيد بندي المتهم بجرائم قتل عدّة، ارتكب بعضها في أثناء عمله مع رول، لقد أصبح الإثنـان صديقيْن على الفور. قالت رول: لقد كان تيد مخادعاً، ولم أكن أعلم ما إذا كان يستغفلني أم لا. تبدو الشخصية المعادية للمجتمع صادقة دائماً ومواجهتها مثالية تماماً، لقد اعتقدت أنني أعـرف ما الـذي أبحث عنه، ولكن بعد أن عملت مع تيد لم تكن هناك أي علامة أو اكتشاف» (Edward Iwata, «The Baffling Normalcy of Serial Murders,» San Francisco Chronicle, May 5, 1984)

أكثر من الأخرى. مع الأسف، هناك قليل من دراسات خصائص المخادعين الناجحين؛ ولا توجد دراسات تبحث فيما إذا كانت تعتمد الخصائص الشخصية لأولئك الذين يكذبون بنجاح على المكان الذي يمارسون فيه الخداع أم لا، إنّ تخميني للجواب على ذلك هو النفي، وأنّ أولئك الذين يكذبون في المجال العسكريّ قد يجيدون الكذب في الأعمال الكبيرة بصورة جيدة.

من المغري شتم أيّ عدو سياسيّ يُعرف عنه الكذب على أنه شخصية معادية اجتماعيّاً ومضطربة عقليّاً، وفي حين لا أمتلك الدليل لمناقشة ذلك، فإنني أشك بمثل هذا الحكم. إنّ تصنيف نيكسون بطلاً أو شرِّيراً يعتمد على سياسات الشخص، وكذلك القادة الأجانب الذين يمكن أن يظهروا على أنهم مرضى نفسيين أو دهاة، اعتماداً على ما إذا كانت أكاذيبهم تقارب قيم الذين يحكمون عليهم واتجاهاتهم، لا أتوقع أن يستطيع المرضى النفسيون العيش في المجتمعات البيروقراطية لمدة كافية للوصول إلى القيادة.

ذكرت حتى الآن مُحَدِّدَيْن للخوف من الانكشاف؛ شخصية الكاذب، وقبل ذلك، مسموعية كاشف الكذب. وتعدّ الأخطار التي تكون على المحك بالأهمية نفسها أيضاً. هناك قاعدة بسيطة؛ كلما زادت الأخطار، زاد الخوف من انكشاف الكذب، قد يكون تطبيق هذه القاعدة البسيطة معقداً، إذ ليس من السهل دائماً معرفة ما هي هذه الأخطار، وقد تكون سهلةً أحياناً.

ولمّا كانت طالبات التمريض مدفوعات بقوة إلى النجاح في المهنة، وخصوصاً عند البدء بالتدريب، فإنّ الأخطار في تجربتنا عالية. لذا، كان يجب أن يكون لدى الممرضات مقدار كبير من الخوف من الانكشاف الذي قد يتسرب أو قد يفضح كذبهن، وربما يكون الخوف من الانكشاف أضعف لو كانت مهنه التمريض غير معنية بالتجربة، وقد يكون اهتمام معظم الممرضات أقلّ حيال الانكشاف لو طلب إليهن إخفاء مشاعرهن بشأن أخلاقية سرقة المتاجر، ولربما تزداد الأخطار لو تمّ إقناعهنّ أنّ اللواتي يفشلن في التجربة سوف يُحرمن من دخول كلية التمريض.*

* أثبت البحث أنّ اللواتي أجدن الكذب وإخفاء العاطفة الحقيقية كن أكثر قدرة في السيطرة على مشاعرهن، وكن الأفضل في سنوات التدريب الثلاث التالية.

على البائع الذي يضلل زبائنه أن يهتم أكثر بالصفقة ذات العمولة الكبيرة لا الصغيرة، كلما كانت العمولة أكبر كان الخوف من انكشاف الكذب أعظم؛ فهناك مزيد من المخاطرة. وأحياناً لا تكون المكافأة الواضحة هي المهمة للشخص المخادع، فقد يسعى البائع لكسب إعجاب زملائه الآخرين من الباعة، وقد ينطوي خداع زبون صعب المراس على مكافأة إعجابهم العالية حتى لو كانت العمولة المتحصلة ضئيلة، وقد تكون الأخطار عالية جدّاً في لعبة بوكر إذا أراد أحد اللاعبين إلحاق الهزيمة بالمنافس تودداً لصديقته، إنّ الفوز هو كلّ شيء بالنسبة إلى بعض الأشخاص، ولا يهم ما إذا كانت المكتسبات بنسات أم دولارات؛ فالأخطار عند هؤلاء عالية في أي منافسة.

قد تكون المخاطرة خاصة بالشخص، لا يعرفها أيّ مراقب خارجي بسهولة، قد يستمتع زير النساء في خداع زوجته، بوطْئِها مراراً لإخفاء علاقاته عنها، وليس لمجرد إشباع رغبته الجنسية.

ينبغي أن يكون الخوف من انكشاف الكذب أكبر إذا انطوت الأخطار على تجنب عقاب، وليس فقط كسب مكافأة، عندما يُتّخذ قرار أولي بالخداع، تشمل الأخطار الحصول على المكافآت، فالكاذب يفكر أكثر شيء بما يمكنه الحصول عليه، فقد يفكر المختلس في النبيذ والنساء والأغاني عند بداية خداعه، ومتى ما تقدمت الخدعة قليلاً بعد بعض الوقت، قد لا تبقى المكافآت متاحة، فقد تصبح الشركة مدركة لخسارتها، وتشكّ في أنّ المختلس لن يستطيع أن يسرق المزيد، فيحاول المختلس الآن المحافظة على خدعته كي يتجنب افتضاح أمره؛ لأنّ العقاب يصبح هو المخاطرة، وقد يكون تجنب العقاب هو المخاطرة منذ البداية، إذا كان المتلقّي متشككاً، أو أنّ ثقة المخادع بنفسه قليلة.

هنالك نوعان من العقاب للخداع، هما: العقاب غير الظاهر إذا فشلت الكذبة، وعقوبة القيام بعملية الخداع بحدّ ذاته، يكون الخوف من انكشاف الكذب أكبر إذا كان نوعا العقاب على المحك. وأحياناً، يكون العقاب للإمساك بالشخص المخادع أسوأ بكثير مما صممت الكذبة لتجنبه، لقد أوضح والد «**صبي ونسلو**» أنّ هذه هي الحالة، فلو أوضح مكتشف الكذب قبل استجواب المشتبه به أنّ العقاب على الكذب قد يكون أسوأ من العقاب على الجريمة، تكون هناك فرصة أفضل لتثبيط المشتبه به قبل الشروع بالكذب.

علـى الوالدين معرفة أنّ شدة عقوبتهم تُعدّ أحد العوامل المؤثرة في اعتراف أطفالهم أو كذبهـم بشـأن تجاوزاتهم، ويأتي الوصف التقليدي من تفسيـر ميسون لوك ويمز الخيالي إلى حدّ ما «**حياة جورج واشنطن وأعماله البارزة.**»

يتكلـم الوالد مع جـورج الصغير: «كثير مـن الآباء يجبرون أولادهم علـى القيام بهذه الممارسة الحقيرة (الكذب) من خلال ضربهم بوحشية عن كلّ خطأ؛ صغيرٍ أو كبيرٍ. وعليه، يبتكر هذا المخلوق الصغير الخائف الكذبة عند قيامه بفعلته المقبلة، هروباً من العصا، أما أنـت يا جورج، فأنت تعلم أنني أقـول لك دائماً، وأقول لك الآن، إنك في كلّ مرة تقترف فيها خطـأ بطريـق المصادفة، وهذه هي الحالة دائماً؛ لأنك لا تزال صغيراً دون **خبرة** أو **معرفة**، عليـك ألّا تزور الخطـأ أو تخفيه، بل عليك التقدم بجرأة، يا ولدي، مثل رجل صغير وإبلاغي بالأمـر. وبـدلاً من ضربك يا جورج، سوف أُكـنّ لك احتراماً ومحبة أكثر يـا عزيزي. وتبيّن قصة «شجرة الكرز» أنّ جورج وثق بما يدعيه والده.

لا يخسـر الأطفـال حال القيام بفعـل الكذب فقـط مقارنة بما سيخسـرون من خلال الصـدق، قـد يخبر الزوج زوجته اللعوب إنه على الرغم من جـرح مشاعره لربما التمس لها عـذراً لعلاقتها لـو أنها لم تكذب بشأنها، وسوف يدّعي هذا الزوج أنّ فقدان الثقة أعظم من فقـدان الاعتقاد بإخلاصها، ربما لا تعلم زوجته بهذا، وقد لا يكون ذلك صحيحاً أيضاً، ربما يُفسَّر الاعتراف بإقامة علاقة على أنّه قسوة، وقد يدّعي الزّوج المهان أنّ زوجته التي تراعي مشاعره بحقّ ستخفي طيشها عنه، قد لا يتفق الزوجان، وقد تتغير العاطفة على مدى سنوات الـزواج، وقد تتغير المواقف جذريّـاً إذا كانت هناك علاقة غرامية خارج نطاق الزواج، فقد يختلفان عمّا كانا عليه عندما كان الأمر غير واقع.

حتـى لـو عرف الشخصـ المتسبب في الضـرر أنّ الضرر الذي يقـع إذا انكشف كذبه سيكون أكبر من الخسارة التي تأتي من الاعتراف بالتجاوز، فستبقى الكذبة مغرية؛ لأنّ قول الصـدق يجلب خسارات مباشرة وأكيدة، فـي حين يَعد الكذب احتمال تجنب الخسارة، وقد يكـون احتمال التخلص من العقوبة المباشرة مغرياً جدّاً لدرجة أن تصبح الرغبة في اتخاذ هذا المسار يتسبب في التقليل من احتمالية الانكشاف وما يلحقه من عواقب وخيمة.

يأتـي التسليم بأن الاعتراف هو السلوك الأفضل متأخـراً، بعد أن تمّت المحافظة على الخدعة مدة طويلة، والتّمادي بذلك بحيث لا يؤدي الاعتراف لعقاب أقلّ حدّة.

هناك قليل من الغموض بشأن تكلفة الاعتراف النسبية أحياناً مقابل الإخفاء المستمر، هنـاك أفعال سيئة بحـدّ ذاتها، بحيث لا يعقـب الاعتراف بها إلا قليل مـن القبول، ويضيف إخفاؤهـا القليل من العقاب للمتهم، تلك هي الحال إذا تضمّنت الكذبة إخفاء إساءة لطفل، أو جريمـة، أو خيانـة، أو مُسافِـح محارم، أو إرهـاب، وعلى عكس المكافـآت المحتملة لزير النسـاء التائب، فإنّ توقع العفو عن المعترفين بذلك غير وارد (على الرغم من أنّ الاعتراف مخفـف للعقـاب). إلى جانب عدم وجود غضب أخلاقي عـارم لإخفائهم أفعالهم متى ما تم اكتشافهـم، لا يقع الأشخاص السيئون أو القساة فقط في هـذه المواقف؛ فاليهودي في بلد الاحتـلال النـازي الذي كان يخفي هويتـه بصفته جاسوساً في أثناء الحـرب، يكسب القليل بالاعتـراف، فـي حين لا يخسر شيئاً إنْ حافظ على خداعـه، وعندما لا تتوافر فرصة لكسب عقاب أخـفّ، فربما يعترف الكاذب للتخفيف من عـبء المحافظة على الخدعة، وللتخلص مـن المعاناة من جـرّاء مستوى التخوف المرتفع مـن الكشف عن الخـداع، أو للتخلص من الذنب.

يكمـن العامل الآخـر المهم بشأن تأثيـر الأخطار في الخوف مـن انكشاف الكذب بما يكسبه المتلقّي أو يخسره، وليس المخادع فقط. وعادة ما تكون مكاسب المخادع على حساب مكاسـب المتلقّي، فالمختلس يكسب عادة ما يخسـره ربّ العمل، ولا يتساوى ذلك دائماً. قد تكـون عمولة البائع المكتسبة مـن جراء الإخفاق في تمثيل منتج ما أقـل بكثير من الخسارة التي يتعرض لها العميل الساذج. لذا، فالأخطار لكلّ من الكاذب وضحيته تختلف نوعاً وكمّاً.

فقد يكون كسب زير النساء هو المغامرة، في حين يخسر الزوج الدّيّوث احترامه لذاته، وعندمـا تختلف الأخطـار لكلّ من الكاذب وضحيتـه، فقد تكون الأخطـار بذاتها هي محدّد تخوّف الكاذب من انكشاف كذبه، وهذا يعتمد على ما إذا كان الكاذب مدركاً للفرق أم لا.

لا يُعـدّ الكاذبون المصدر الأكثر مصداقية لتقدير ما هو على المحك لأهدافهم، إذ إن لديهم مصلحة مكتسبة في تصديق ما يخدم غاياتهم، يجد المخادعون الراحة عند التفكير

أن ضحاياهم يستفيدون من خداعهم بقدر استفادة الكاذبين أو أكثر وقد يحدث ذلك، فقد لا تضر الأكاذيب جميعها المتلقِّي. فهناك أكاذيب مرغوبة مُجازة:

«في اليوم السابق، سُحب ولد مصاب، شاحب اللون، نحيل، عمره إحدى عشرة سنة، ولكنه ما يزال حيّاً، من بين حطام طائرة سقطت يوم الأحد في جبال متنزه يوسيمان الوطني، لقد بقي الولد أياماً على قيد الحياة على الرغم من العواصف الثلجية الشديدة، وليالي انخفضت فيها درجة الحرارة إلى ما دون الصفر على ارتفاع أحد عشر ألف قدم، حيث موقع تحطم الطائرة، وكان قد لفّ نفسه بكيس نوم في المقعد الخلفي في الحطام المدفون تحت الثلج. لقد كان الناجي الوحيد.

كيف حال أمي وأبي؟ سأل الولد وهو في حالة ذهول: هل هما بخير؟ لم يخبر المنقذون الولد إن والدته وزوجها كانا ميتيْن، وما يزالان عالقيْن بمقعديهما في قمرة القيادة المحطمة على بعد إنشات من مكان وجوده[8]».

قد ينكر بعضهم أن هذه كذبة مرغوبة وتفيد الهدف (الولد)، ولا تقدم مكاسب للمنقذين، إن حقيقة استفادة الهدف لا تعني إمكانية وجود مستوى خوف مرتفع من انكشاف الكذبة. فإذا كانت الأخطار عالية، فسيكون هناك خوف مرتفع من الانكشاف بصرف النظر عن المستفيد، يجب على المنقذين الاهتمام بنجاح إخفائهم لقلقهم بشأن ما إذا كان الصبي قادراً على تحمل الصدمة أم لا.

في الخلاصة، يكون الخوف من الانكشاف في أعلى درجاته عندما:

- يُعرف عن المتلقي أنه يصعب خداعه.
- يبدأ المتلقي بالشّكّ.
- يكون الكاذب قليل الممارسة، ولا يوجد لديه سجل نجاح في الأكاذيب.
- يكون الكاذب عرضة للخوف من افتضاح كذبه.
- تكون الأخطار كبيرة.

obeikandi.com

- تكـون المكافآت والعقوبات على قدر من الأهمية بالنسبة إلى الكاذب، أو إذا اقتصر الأمر على العقوبات فقط.
- يكون عقاب الشخص الكاذب عظيماً، أو أنّ العقاب عمّا تدور حوله الكذبة عظيم ولا يوجد حافز للاعتراف.
- لا يستفيد المتلقي بأيّ حال من الأحوال من الكذب.

ذنب الخداع

يشير ذنب الخداع إلى شعور عن الكذب، وليس الموضوع القانوني فيما إذا كان الشخص مذنبـاً أو بريئـاً، ويجـب تمييز ذنب الخداع عن الشعـور حول مضمون الكذبـة، لنفترض أنّ «**صبـي ونسلـو**» قد سرق حقيقـة الحوالة الماليـة البريدية، ولربما قـد راوده شعور بالذنب حيال السرقة بحدّ ذاتها، وحكم على نفسه أنه شخص بغيض لفعلته، فلو أخفى روني سرقته عـن والده فلربما كان سيشعـر أيضاً بالذنب لقوله الكذب؛ وهذا هـو ذنب الخداع، ليس من الضـروري الشعـور بالذنب حيال مضمون الكذبة للشعور بالذنـب حولها، ولنفترض أنّ روني سـرق من صبي قام بالغش ليهزمه في مسابقة المدرسة، قد لا يشعـر روني عندها بالذنب حـول السرقة من زميـل دراسة بمثل هذه السمعـة؛ وقد يبدو الأمر أنه انتقـام مشروع. ومع ذلـك، قد يشعر بذنـب الخداع بسبب إخفـاء سرقته عن مدير المدرسـة أو والده، لم تشعر المريضـة النفسيـة ماري بالذنـب بشأن خطتها فـي الانتحار، ولكنها شعـرت بالذنب بشأن الكذب على طبيبها.

قـد يختلف ذنب الخداع في قوتـه تماماً مثل الخوف من الانكشـاف، فقد يكون طفيفاً جـدّاً، أو قويّـاً جدّاً بحيـث تفشل الكذبة؛ لأنّ ذنـب الخداع ينتج قرائـنَ أو تسرباً على وجود الخـداع، وعندما يصبح ذنب الخداع شديداً، تكـون تجربته مؤلمة، وقد تقوّض أشد مشاعر معانـاة الشخصـ الأساسية لاحترام الذات، قد يدفع الارتياح مـن ذنب الخداع الشديد إلى الاعتـراف علـى الرغم من احتمال العقاب على الجرم المُعتـرَف به، وربما يكون العقاب في الحقيقـة هو المطلوب تمامـاً، ويعود سبب اعتـراف الشخص للتخفيف مـن الشعور بعذاب الذنب؛ (تأنيب الضمير).

عندمـا يُتَّخـذُ القرار بالكذب أول مـرة، لا يتوقع الأشخاص دائمـاً بدقة قدر معاناتهم ذنـب الخداع لاحقاً، وقد لا يدرك الكاذبـون تأثير شكر ضحاياهم لهم لمساعدتهم البادية، أو كيـف سيشعرون عندما يـرون شخصاً آخر ملوماً على سوء أفعالهم، وفي حين تستثير هذه المشاهد عادة الشعور بالذنب، فإنها بالنسبة إلى آخرين كالهال للقهوة؛ أي ما يجعل الكذب مرغوبـاً، سنناقش ردّة الفعل هـذه بوصفها **مزحة الخداع** لاحقاً، والسبـب الآخر في تقليل الكاذبيـن مـن شأن ذنب الخداع الذي سيشعرون به هو أنّ الكاذب قد يتعلم بمرور الوقت أنّ الكذبة الواحدة غير كافية، وأنه يجب إعادة الكذبة مراراً وتكراراً وتقديم افتراءات عدّة من أجل حماية الخداع الأساسيّ.

يرتبط الخزي بالذنب ارتباطاً وثيقاً، باستثناء أنّ هناك فرقاً نوعيّاً رئيساً. ليس هناك حاجـة إلـى آخرين للشعـور بالذنب، وليس بالضـرورة أن يعرف عن شعور الذنـب أحد؛ لأنّ المذنـب قاضـي نفسه. أمّا الخزي فليس كذلـك. تتطلب مذلة الخزي رفضـ الآخرين له أو سخريّتهـم منه، وإذا لم يعرف أحد عن العمل السيئ، فلن يكون هناك خزي، ولكن قد يكون هناك شعور بالذنب، وبالطبع قد يكون هناك شعور بالإثنين معاً. إنّ الفرق بين العار والذنب مهـم جدّاً، إذ تتجاذب هاتان العاطفتـان الشخص باتجاهين متعاكسين. فقد تُحفّز الرغبة في التخفيف من الذنب الاعتراف، ولكن قد تمنع الرغبة في تجنب الخزي هذا الاعتراف.

فـي «**صبـي ونسلـو**»، لنفترض أنّ رونـي قد سرق النقـود فعلاً، وأنه شعـر بذنب كبير لقيامـه بذلك، وكذلك شعر بذنب الخداع بشأن إخفائه فعلته المشينة. ربما يرغب روني في الإقـدام على الاعتراف ليحصل على الراحة من عـذاب ضميره بالذنب، ولكن شعوره بالعار حيـن تصـوره كيفية ردّة فعل والده يحجمه عن ذلك، ولتشجيـع روني على الاعتراف، عرض والـده العفو عنـه بحيث لا يكون هناك عقاب في حال اعترافه، يجـب أن يحدّ تناقص خوف رونـي من العقاب من خوفه من الانكشاف. ولكن مايـزال الوالد في حاجة إلى التخفيف من الخزي إذا وجب على روني الاعتراف. لذا، يحاول الوالد القيام بذلك من خلال وعده لروني أنـه سـوف يغفر له زلّته، ولكنه ربما يكون بذلك قد زاد من تخفيف الخزي، وزاد من احتمال اعتـراف روني لو أنه أضاف شيئاً من الحيلـة التي يستخدمها المحقق، والتي استشهدت بها قبل بضع صفحات، عندما كان يستجوب أحد المشتبه بهم بالقتل، ربما أمكن الوالد أن يقول

لروني: يمكنني فهم دافع السرقة، وربما كنت سأقوم بالعمل نفسه لو كنتُ بوضعكَ وتعرضتُ للإغـراء نفسه الذي تعرضتَ إليـه. لا أحد منّا معصوم عن الخطأ، وقد نرتكب أفعالاً ندرك فيما بعد أنها منحرفة عن جادة الصّواب، وأحياناً لا يمكنك منع نفسك من القيام بما قمت به. بالطبع، قد لا يكون الوالد الإنجليزي قادراً على قول ذلك صراحة. وعلى عكس مستجوبي المجرمين، قد لا يكون راغباً بالكذب للحصول على الاعتراف.

يكون بعض الأشخاص عرضة للشعور بالخزي بشأن الكذب وذنب الخداع، ويشمل ذلك أولئك الذين نشؤوا في بيئة صارمة ترى الكذب خطيئة كبرى. وكذلك الذين نشؤوا في بيئة لا تدين الكذب على وجه الخصوص، ولكنها تغرس مشاعر الذنب القوية، يبدو هؤلاء المذنبون ساعين للتجارب التي يزيدون من خلالها الشعور بالذنب والوقوع في براثن الخزي والعار.

لسـوء الحظ، هناك عددٌ قليلٌ جدّاً من البحوث عن الأشخاص الذين يشعرون بالذنب، والذين لا يشعرون به أيضاً.

قدّم جاك أندرسون؛ كاتب عمود في إحدى الصحف، تفسيراً لكذاب لم يشعر بالخزي ولا بالذنب، ويهاجم مصداقية ميل واينبرغ الشاهد الرئيس في وكالة التحقيقات الفيدرالية للملاحقـات القضائيـة؛ أبسكام. وصف أندرسـون ردّة فعل واينبرغ عندمـا اكتشفت زوجته أنـه يخفـي عنها علاقة خارج نطاق الزوجية للسنوات الأربعـة عشرة الماضية، وعندما جاء ميـل أخيراً إلى البيت، تجاهل طلب ماري تفسير فعلته، وقال: إذن، تمّ الإمساك بي، لطالما أخبرتـك أنني أكبـر كاذب في العالم، ثم جلس على أريكته المفضلـة، وطلب طعاماً صينيّاً، وطلب إلى ماري دَرْمَ أظفاره[9].

إنّ عـدم الشعور بالذنـب أو الخزي بشأن الأفعال المعيبة علامة على مرض نفسيّ، إذا كان يشمل جميع أو معظم مناحي حياة الشخص. (من الواضح أنه لا يمكن لأحد تقديم هذا التشخيـص مـن تفسير تقدمه صحيفة يومية)، يختلف الخبراء حـول ما إذا كان عدم وجود شعور بالذنـب أو الخزي يعزى إلى التنشئة الاجتماعية، أو إلى بعض المحدّدات البيولوجية. إذ إنّ هنـاك إتفاقـاً أنّه لا الشعور بذنب الكذب ولا الخـوف من كشف الكذب تجعل المريض النفسيّ يقع في الأخطاء عند قوله الكذب.

فـإذا كان المخادع لا يتشارك مع المتلقّي في القيم الاجتماعية ذاتها، فلن يكون هناك ذنب خداع لديه، يشعر الأشخاص بالذنب بصورة أقل بشأن الكذب عن أولئك الذين يعتقدون أنهـم مخطئون، فقد لا يشعر زير النساء الذي تكـون زوجته باردة جنسيّاً بالذنب في الكذب بشأن علاقته مع امرأة أخرى. ونادراً ما يشعر الثوري أو الإرهابي بالذنب بشأن خداع محققي الدولـة، ولن يشعر الجاسوس بالذنـب حيال تضليله ضحيته، يصـوغ عميل مخابرات سابق هـذا بإيجاز بقوله: نَحِّ هُراء التّجسّس جانباً، فيكون عمل الجاسوس خيانة الثقة[10]». عندما نصحـت مسؤولي الأمن الذيـن أرادوا القبض على أشخاص بمحاولة اغتيال مسؤول حكومي رفيـع المستوى، لم أستطع الاعتماد على ذنب الخداع فـي الحصول على علامات دالّة. فقد يكـون القتلة خائفين من اكتشافهم إن لم يكونوا محترفين، ولكن لا يرجح أن يكونوا مذنبين بشأن ما خططوا له. والمجرم المحترف لا يشعر بالذنب حيال خداع الآخرين، والمبدأ نفسه فـي العمل يفسـر عدم شعور الدبلوماسي أو الجاسوس بالذنـب حيال تضليل الطرف الآخر. فالقيم غير مشتركة، والكاذب يعمل جيداً لمصلحته.

الكـذب مشروع في معظـم هذه الأمثلة فكلّ واحـد من هؤلاء الأشخاص ينشد قاعدة اجتماعيـة واضحـة المعالم تسمح بخداع الخصـم، إضافة إلى أنّ هنـاك قليلاً من الشعور بالذنـب حيال هذا الخداع المسوّغ عندما تكون القيم مختلفة بين الكاذب وضحيته، حتى إنّ الكذب قد يكون مسوّغاً حتى لو اشترك الإثنان في القيم نفسها؛ فقد لا يشعر الأطباء بالذنب عنـد خـداع مرضاهم إذا كانوا يعتقدون أنّ ذلك لمصلحتهـم، ويعدّ إعطاء المريض علاجاً وهميّاً كحبة سكر توصف على أنها علاج مفيد خدعة طبية قديمة أثبت نجاحها الزمن. فإذا شعر المريض بالتحسن، أو على الأقل توقف عن مضايقة الطبيب لإعطائه دواء غير ضروري قـد يكـون ضاراً، يعتقد كثير من الأطباء أنّ هذه الكذبة لهـا ما يسوّغها، وفي هذه الحالة، لا يكون لِقَسَمِ أبقراط للصدق مع المريض شأن، فالطبيب عليه أن يقوم بما يساعد المريض.* وليـس علـى الكاهن الذي يخفـي اعتراف أحدهم له بجـرم قد فعله عند سـؤال الشرطة له

* في حين إنّ 30%–40% من المرضى يحصلون على الراحة من جراء تناول العقار الوهمي، فإنّ بعض العاملين في المجالين الطبي والفلسفي يعتقدون أنّ استخدام العقارات الوهمية يعرّض الثقة المطلوبة في العلاقة الطبية للخطر، ويمهد الطريق لمزيد من الخداع الخطر. انظر مقالة ليندسي جروسون «مناقشة استخدام العقارات الوهمية بناءً على أسس أخلاقية» نيويورك تايمز، 13، شباط، صفحة 19 للرجوع إلى هذا الموضوع والاطلاع على نقاش لطرفي الموضوع.

عمـا إذا كان يعرف أي شيء عمّـن قام بالجرم، الشعور بذنب الخداع. إذ تسمح وجهة نظره لـه بالخداع، فهـو لا يستفيد من الخداع، بل المجرم هو الـذي يستفيد، والذي يبقى مجهول الهويّة، لم تشعر طالبات التمريض في تجربتي بأيّ ذنب خداع حيال إخفاء مشاعرهن.

فقـد سمحت الأمثلة التي فسرت متى يجب على الممرضـة الإخفاء عند القيام بعملها في تخفيف معاناة المريض.

قـد لا يدرك الكاذبون أو يعترفون أنهم عادة يستفيدون من الخداع الذي يقدّم على أنه كـذب مُسـوّغ يأخذ في حسبانه مشاعر الآخرين أو فائدتهـم، وقد فسر نائب الرئيس لشركة تأميـن وطنيـة أنّ الإخبار بالحقيقة قد يكون سيئاً عندما يكون الشخص الآخر معنيّاً بالأمر؛ إذ من الصعب أحياناً القول لشخص ما: لن تكون رئيساً للشركة أبداً[11]؛ لأنك تراعي شعوره، وتراعـي شعـور نائب الرئيس أيضاً، وقد يكون من الصعب التعامل مع خيبة أمل هذا الرجل، ناهيـك عن إمكانية احتجاجه، وخصوصـاً إذا كان الشخص يُحمّل نائـب الرئيس مسؤولية الحكـم السلبـي عليه. بهذه الكذبة، تراعـي مشاعر الإثنين معاً. قد يـرى أحدهم أنّ الرجل سيتعرّض للأذى بالكذب عليه وحرمانه من المعلومـات التي على الرغم من أنها غير سارة قد تجعله يحسن أدائه، أو تحثّه على البحث عن وظيفة في مكان آخر، وبالمثل، قد يقول آخر إنّ الطبيب الذي يعطي المريض عقاراً وهمياً على الرغم من أنّه كذبة لها ما يسوّغها يكسب أيضاً منها، فليس عليه التعامل مع إحباط المريض، أو خيبة أمله بعدم وجود علاج لمرضه، أو التعامـل مـع غضب المريض إذا علم أنّ الطبيب قد أعطاه العقـار المزيف لأنه يعتقد أنه مصـاب بوسواس المرض. مرة أخرى، المهم هو تقييم الكذبة ما إذا كانت تفيد المريض أو تؤذيه.

ومع ذلك، هناك أكاذيب لها ما يسوّغها تماماً، فالكاهن الذي يخفي اعتراف المجرم، والمنقـذ الـذي يخفي خبر وفاة والـدي طفل الأحد عشـر عاماً في حـادث تحطم طائرة لا يحصـلان من إخفـاء الحقيقة على أيّ فائدة، وإذا اعتقد الـكاذب أنه لا يكسب من الكذب، فربما لا يشعر بذنب الخداع.

حتـى الخـدع الأنانية قد لا تنتـج شعوراً بذنب الخـداع عندما تكون الكذبـة مشروعة؛ فلاعبـو البوكر لا يشعرون بذنـب الخداع حيال خداعهم اللاعبيـن الآخرين، وينطبق الأمر ذاته على المساومة سواء كان ذلك في سوق في منطقة الشرق الأوسط، أو في الوول ستريت، أو في مكتب وكيل عقارات محليّ.

ذكـرت مقالة عن الأكاذيب في مجال الأعمال ما يأتي: ربما كانت الكذبة الأكثر شهرة علـى الإطلاق هي: هذا عرضي الأخير. فمثل هذه الكذبة مقبولة في عالم الأعمال، ومتوقعة خلال المساومات الجماعية، حيث لا يتوقع أنّ يُظهر شخص ما أوراقه كلّها على الطاولة منذ البدايـة[12]، فصاحـب المنزل الذي يطلب سعـراً أعلى لبيع بيته ثم يبيعـه لن يشعر بالذنب إذا حصـل على السعر المطلوب، فكذبته لها ما يسوّغها؛ لأنّ المشاركين يتوقعون المعلومات الخطأ وليست الصحيحة، لا ينطبق تعريف الكذب الذي قدمته على المساومة ولعبة البوكر. حيـث توفر هذه الحـالات بطبيعتها إشعارات مسبقة في أنْ لا أحـد سيكون صادقاً. لذا، من الغبـاء إظهـار كلّ ما لديك من أوراق في لعبة البوكر، وكذلك من الغباء أن يطلب بائع منزله أقلّ الأسعار فيه.

يحتمـل أن يشعـر الشخص بذنب الخـداع بشعور أكبر عندمـا لا يُسمح بالكذب. يجب أن يكـون ذنب الخداع أشـدّ عندما تربط الثقة بين الكاذب وضحيّتـه، بافتراض عدم وجود تضليـل بينهما، في مثل هـذه **الخدع الانتهازية**، يكـون الذنب بشأن الكـذب أكبر إذا كانت معانـاة المتلقّي تعادل ما يكسبه الكاذب على الأقل. حتى في هذه الحالة، لا يكون هناك قدر كبيـر من الشعور بذنب الخداع إن كان موجـوداً أصلاً. إلا إذا كانت هناك قيم مشتركة على الأقل بينهما. قد لا تشعر المراهقة التي تخفي تدخينها الحشيش عن والديها بأيّ ذنب خداع إذا كانـت تعتقـد أنّ والديها أحمقان لدرجة القول أنّ المخـدر ضارّ، ولو اعتقدت أنها تعرف بالخبرة أنّ أحكامهما غير صحيحة، ولو اعتقدت أنهما منافقان، يشربان الخمر ولا يسمحان لهـا باستخدام مخدر ترفيهي بخيارهما، فستكون فرصة شعورها بذنب الخداع أقلّ، حتى لو كانت تختلف مع والديها بشأن الحشيش وكذلك الأمور الأخرى، أما إذا كانت لا تزال متعلقة بهمـا، وتهتم لأمرهما، فقد تشعر بالخزي لـو اكتشفا كذبتها. يتطلب الخزي بعض الاحترام لأولئك الذين يختلفون معك، وإلا جلب الاختلاف الغضب أو الازدراء وليس الخزي.

يشعـر الكاذبون بذنب أقـلّ عندما تكون ضحاياهـم غير شخصيـة أو مجهولة تماماً. فالشعـورُ بالذنـب لزبونة تخفي عن موظف صنـدوق الدفع أنه قد تقاضـى منها ثمناً زهيداً لسلعة غالية أقلُّ إذا كانت لا تعرف هذا الموظف، أما إذا كان الموظف هو المالك أو فرداً من عائلتهـا، أي أنّ المتجـر ملك للعائلة فستشعر الزبونة الكاذبة بذنب أكبر مقارنة مع شعورها عندما يكون المتجر تابعاً لسلسة متاجر، من السهل الانغماس في التخفيف من الذنب بقولنا إن المتلقّـي لـم يتـأذَّ فعليّاً، أو أنّه غير مـدرك للكذبة، أو أنـه يستحقّ التضليـل، أو إذا كان المتلقّي مجهولاً للكاذب[13].

وغالبـاً ما تكـون هناك علاقة عكسية بين ذنب الخداع وشعـور الخوف من الانكشاف. فمـا يخفـف الذنب حيال الكـذب يزيد الخوف مـن أن يتم اكتشاف بالـكاذب، عندما يؤذن بالخـداع يكون هناك شعور أقل بالذنب. ومع ذلك، يزيد منـح الإذن من الأخطار. لذا، فإنّه يجعـل الخوف من الانكشـاف مرتفعاً. لهذا السبب، أولت طالبـات التمريض جلّ اهتمامهنّ خوفـاً من الفشل في التجربة التي شاركن فيها؛ لأنّ الإخفـاء مرتبط بحياتهنّ المهنية، كان لديهنّ خوف من الانكشاف بدرجة مرتفعة وشعور أقل بذنب الخداع، فربُّ العمل الذي يكذب على موظفيه عندما يشتبه بالاختلاس، ويخفي شكوكه للإمساك بالسارق بالجرم المشهود، يرجح أن يشعر بالخوف من الانكشاف، ولكن شعوره بالذنب يكون منخفضاً.

قـد تقلل العوامل التي تزيد من ذنب الخداع الخوف من الانكشاف، وقد يشعر الكاذب بالذنب لتضليله شخصاً تجمع بينهما ثقة متبادلة، ولكنه يكون أقلّ خوفاً إذا أمسك به شخص لا يتوقـع أن يتم استغلاله. في الخلاصة، قد يشعر الشخص بذنب كبير حيال الكذب وخوف شديد من كشف كذبته معاً، أو أنه قد يشعر بالقليل منهما، وذلك اعتماداً على تفاصيل حالة الـكاذب ومكتشف الكذب. يُسرُّ بعض الأشخاص بذنب الخـداع. وقد يكون جزء من دافعهم للكذب هو الحصول على فرصة الشعور بالذنب حيال ما فعلوه.

ومـع ذلك، يجـد معظـم الأشخاص تجربـة الشعور بالذنـب سيئة جـدّاً، لدرجة أنهم يبحثون عن طرق تحدُّ من ذلك الشعور. هناك كثير من الطرق لتبرير الخداع. ويمكن النظر إليهـا على أنّهـا ردّ على ظلـم؛ فالمتلقّي السّيئ واللئيـم يستحق الكذب عليـه، فهذا المدير بخيـل جدّاً، ولم يكافئني علـى العمل الذي قمت به، لذا أخذت مكافأة بنفسي، أو أنّ المتلقّي

يتّسم بالسذاجة، بحيث يرى الكاذب أنّ تصديقه له خطؤهم لا خطؤه؛ فالباب المفتوح على مصراعيه يدعو اللصوص للدخول إلى المنزل وسرقته.

ذُكر مُسوّغان من مُسوّغات الكذب التي تخفف من الشعور بذنب الخداع في وقت سابق؛ الهدف النبيل أو متطلبات العمل واحد منهما، تذكر فشل نيكسون بتسمية أكاذيبه بالأكاذيب لأنه رآها ضرورية للفوز بمنصبه والاحتفاظ به، والمُسوّغ الآخر هو حماية الشخص الذي سيُكذب عليه. قد يصل الكاذب أحياناً إلى حدّ الادعاء أنّ المتلقِّي كان راغباً في ذلك، وإذا تعاون الشخص المتلقِّي في الادعاء وعرف الحقيقة طوال الوقت، وادعى عدم معرفته، حينها، ليست هناك كذبة، ويعدّ الكاذب خالياً من أيّ مسؤولية. يساعد الشخص المستعد للخداع المخادعَ للمحافظة على الخدعة من خلال تجاهل الكذبة السلوكية. وسيحاول المتلقِّي غير المستعد للمشاركة في الخداع إذا كان متشككاً بشأن الخداع.

والمثال المثير للاهتمام بشأن متى يكون المتلقِّي مستعداً يرد في ما تم اكتشافه أخيراً عن روبرت لوسي؛ الشرطي الذي تحول إلى مخبر سرّيّ، والذي استشهدت بقصته في نهاية الفصل الثاني. لقد أُثني كثيراً على لوسي في كتاب روبرت «**أمير المدينة**»، وكذلك في الفيلم المقتبس من تلك القصة، والذي يدعي كون القصة حقيقية، وكيف ساعد لوسي النيابة الاتحادية (الفيدرالية) على الحصول على قرائن الفساد بين رجال الشرطة والمحامين. وعندما أراد لوسي العمل مع النيابة الفيدرالية سألوه عن الجرائم التي اقترفها بنفسه. اعترف لوسي بثلاث جرائم، ادعى أحد الأشخاص الذين فضحهم لوسي لاحقاً أنه ارتكب جرائم أكثر مما اعترف به، وبسبب كذبه بشأن جرائمه الشخصية، أشارت النيابة إلى أنّ شهادته ضدهم فقدت مصداقيتها. لم تثبت هذه الادعاءات مطلقاً، وأدين كثيرٌ بناءً على شهادة لوسي، وذكر آلان ديرشوفيتز المحامي الذي دافع عن أحد المدانين بشهادة لوسي محادثةً بعد المحاكمة اعترف فيها لوسي أنه ارتكب فعلاً عدداً أكبر من الجرائم.

قال آلان ديرشوفيتز: لقد أبلغته (لوسي) أنّ من الصعب علي تصديق أنّ شو (مدعي النيابة الفيدرالية) لم يعرف بشأن الجرائم الأخرى التي سبقت محاكمة روسنر [الرجل الذي دافع عنه ديرشوفيتز]، حينها قال إنّه مقتنع أنّ شو يعرف أنني ارتكبت جرائم أكثر؛ لأن مايك شو ليس مغفّلاً.

فسألته: إذن، كيف يمكنه الجلوس هناك ومشاهدتك تكذب على منصة الشهود؟

تابع لوسي: لم يعرف على وجه اليقين أنني كنت أكذب، لا بد أنه شك بذلك، وربما قد صدقه، ولكني طلبت إليه عدم الضغط عليّ، وقد فعل. قلت: ثلاث جرائم! عندئذٍ، رفع لوسي ثلاث أصابع بإشارة إلى العدد، وابتسم ابتسامة عريضة، فكان لزاماً عليه قبول ذلك. يُحرض المدّعون يومياً على الادلاء بالشهادات الكاذبة يا آلان، وأنت تعرف ذلك[14]».

علم ديرشوفيتز فيما بعد، أنّ اعتراف لوسي بالكذب كان كذبة أيضاً، لقد أبلغ مسؤول إنفاذ القانون الذي كان موجوداً عندما التقى لوسي أول مرة مع مدعي النيابة ديرشوفيتز، أنه ومنذ البداية اعترف صراحة بارتكابه أكثر من الجرائم الثلاث التي اعترف بها. لقد ساعد المدعون الفيدراليون لوسي على إخفاء الحقيقة كاملة لأعماله الإجرامية من أجل المحافظة على مصداقيته بوصفه شاهداً؛ فقد تصدق هيئة المحلفين رجال الشرطة الذين ارتكبوا ثلاث جرائم فقط، ولكنهم لا يصدقون رجل الشرطة الذي ارتكب مجموعة أكبر من الجرائم، بعد جلسات المحاكمة، وعندما أصبح معروفاً على نطاق واسع أنّ لوسي ارتكب جرائم أخرى، كذب لوسي على ديرشوفيتز بادعائه أنّ مدعيي النيابة كانوا ضحايا مستعدين، ولم يعترف أنهم تواطؤوا صراحة لإخفاء سجله الجنائي كي يحافظ على جانبه من الاتفاق، وحمايتهم طالما أمنوا له الحماية، وقد ورد أنّ لوسي سجّل شريطاً لاعترافه أمام النيابة لعدم ثقته بوجود شرف بين اللصوص. وبهذه الطريقة، لا يمكن للمدّعين الادعاء ببراءتهم. ولأنّ لوسي يستطيع فضح شهادتهم الزور بشأن شهادته، فإنّه على يقين أنّهم سيظلون دائما أوفياء تجاهه، ويحمونه من المحاكمة الجنائية.

ومهما كانت الحقيقة عن لوسي، فإنّ محادثته مع ديرشوفيتز تُعدُّ مثالاً مناسباً بشأن أن الشخص المتلقّي المستعد، والذي يستفيد من كذبته مسهل لانطلاء عملية الخداع التي يقوم بها الكاذب، قد يتعاون الأشخاص عند تضليلهم لأسباب أقلّ حدّة. ففي سلوك الكياسة، يكون هدف الخداع مُباحاً عادة، فيقبل المضيف عذر رحيل الضيف مبكرا دون أن يدقق فيه بعناية شديدة. فالشيء المهم في هذه الحالة هو الالتزام بالكياسة وتقديم ادعاء يجنب التسبب للمضيف بالضيق أو الحرج، ولمّا كان المكذوب عليه ليس مستعداً فقط، ولكنه أعطى الموافقة على تضليله أيضاً، فإنّ آداب الكياسة المهذّبة لا تعدّ كذباً.

الرومانسية حالة أخرى على الخداع المُباح، والذي يتعاون فيه الطرفان في المحافظة على كذبهما. كتب شكسبير يقول:

عندما تقسم حبيبتي أنها مطبوعة على الإخلاص
فإني أصدقها بالتأكيد، على الرغم من علمي أنها تكذب
حتى تظن أنني لست سوى فتى عديم الخبرة
غافل عن ألاعيب الزيف في الحياة.
هكذا يصبح تفكيرها عبثاً، حين تعتقد أنني صغير
على الرغم من علمها أنني تجاوزت سن الرشد،
إلا أنني أتظاهر بالسذاجة في تصديق كلامها
بذلك تختفي الحقيقة البديهية في كلا الجانبين.
لكن لماذا لا تقول بنفسها إنها غير مخلصة؟
ولماذا لا أقول أنا لها إنني كبير السن راشد؟
آه، إنّ أفضل ثوب للحب هو الثقة الجليّة
والعمر الذي نقضيه في الحب، لا يجب لسنواته أن تحصى
كذلك أكذب معها، وهي تكذب معي
يتملق كلّ منا الآخر بالكذب الذي نخفي به أخطاءنا.

بالطبع، ليست الخدع الرومانسية كلها حميدة جدّاً، ولا الضحايا كلّهم مستعدون دائماً للتضليل. ولا يمكن الوثوق بالمخادعين لإبداء الرأي الصادق عما إذا كانت ضحاياهم مستعدة لتضليلهم أم لا. فهم متحيّزون نحو الاستعداد؛ لأنّ ذلك يشعرهم بالذنب بدرجة أقلّ، فإذا استطاعوا جعل ضحاياهم يعترفون أنهم يشكون في الأمر، فهم غير ملومين على الأقل جزئيّاً.

قد تصبح الضحايا غير المستعدة بعد حين مستعدة لتجنب تكلفة اكتشاف الخداع، تصور محنة مسؤول حكومي يبدأ بالشكّ أنّ العشيقة التي كان يتحدث معها عن معلومات عمله

obeikandl.com

جاسوسة. بالمثل، قد يصبح متعهدُ وظائفَ ضحيةً مستعدة لطالب عمل محتال تم تعيينه عن طريقه، بدلاً من الاعتراف بحكمه الخائب. لقد وصفت روبرتا وولستتر حالات كثيرة كان فيها القادة الدوليون ضحايا مستعدون لخصومهم، فلم تكن حالة تشامبرلين فريدة. «ففي هذه الحالات جميعها من الإصرار على الخطأ على مدى زمن طويل، وعلى الرغم من وجود قرائن متزايدة وأحياناً قرائن عكسية واضحة بدلاً من ذلك، فإنّ المعتقدات والافتراضات المريحة بشأن الاعتقاد الجيد للخصم المحتمل والمصالح التي من المفترض أنها مشتركة مع ذلك الخصم تقوم بدور بالغ الأهمية، وقد يحتاج الخصم إلى مساعدة المتلقّي لبعض الوقت فقط؛ ويميل الأخير لتفسير ما قد يبدو خطوة تهديدية إلى حد ما[16]».

باختصار، يتعاظم ذنب الخداع عندما:

- يكون المتلقّي غير مستعد للخداع.
- تكون الخدعة أنانية بالكامل، ولا يحصل المكذوب عليه على أي فائدة من تضليله ويخسر بقدر كسب الكاذب.
- لا يكون الكذب مشروعاً، ويعوّل على الصّدق فقط.
- لا يمارس الكاذب الخداع منذ مدة طويلة.
- يتشارك الكاذب والمتلقّي قيماً اجتماعية.
- يعرف الكاذبُ المكذوبَ عليه شخصيّاً.
- لا يمكن إلقاء اللوم على المكذوب عليه بوصفه وسيلة أو ساذجاً.
- يكون هناك سبب يدعو المكذوب عليه توقع التضليل، وعكس ذلك تماماً يتصرف الكاذب لكسب الثقة في مصداقيته.

لذّة الخداع

ناقشت حتى الآن، العاطفة السلبية التي قد تُستثار عند كذب أحدهم: كالخوف من الانكشاف والذنب حيال تضليل المتلقّي، ولكن قد ينتج الكذب مشاعر إيجابيّة أيضاً، ويمكن النظر إلى الكذبة على أنها إنجاز يُشعر الشخص بالارتياح، وقد يشعر الكاذب بالإثارة،

openkandil.com

سواء عند توقعه التحدي أو خلال لحظة الكذب، عندما لا يكون النجاح مؤكداً بعد، وقد تأتي لاحقاً اللذة التي تتأتى من الارتياح أو الفخر بالإنجاز، أو مشاعر الاحتقار نحو الضّحية. تشير لذة الخداع إلى هذه العواطف جميعها أو بعضها، والتي يمكن أن تفضح الخداع إن لم يتم إخفاؤها، هناك مثال بريء على لذة الخداع؛ عندما يتخذ المزاح صورة تضليل صديق ساذج، حيث يجب على المازح أن يخفي لذة خداعه على الرغم من توجيه جزء كبير من أدائه نحو الآخرين، الذين يقدرون مدى انخداع الشخص الساذج.

قد تتنوع شدة لذة الخداع، فقد تكون غائبة تماماً، بدرجة لا تذكر مقارنة مع مقدار الخوف من الانكشاف الذي يشعر به الكاذب، أو قد تكون عظيمة جدّاً لدرجة تشي علامة سلوكية عليها.

قد يعترف بعضهم بخدعهم ليتشاركوا لذة نجاحهم بخداع الآخرين، إنّ المعروف عن المجرمين قيامهم بكشف جرائمهم لأصدقائهم والغرباء، وحتى لرجال الشرطة كي ينالوا الشهرة والتقدير على ذكائهم الفريد لجعل خدعة ما تنطلي على الآخرين.

قد تكون الأكاذيب ممتعة، مثل تسلق الجبال أو الشطرنج، فقط إن كانت هناك مخاطرة أو خسارة. في بدايات الخمسينيات، عندما كنت طالباً في جامعة شيكاغو، كانت إحدى الممارسات الطلابية سرقة كتب من محل بيع الكتب التابع للجامعة، وكان ذلك يُعدُّ طقساً من طقوس قبول الطالب المستجد، وكانت السرقة مقتصرة على بعض الكتب، ويتم التّباهي بالسرقة والإقرار بها على نطاق واسع. كان مستوى ذنب الخداع متدنِّياً، وكان الاعتقاد السائد لدى الطلاب أنّ تشغيل محلّ بيع كتب الجامعة يجب أن يتم من قبل جمعية طلاب تعاونية، ولمّا كان تشغيله الربح بدلاً من ذلك، فقد استحق السرقة. لذا، لم تمسّ محالّ بيع الكتب الخاصة المجاورة للجامعة، وكان الخوف من الانكشاف منخفضاً أيضاً بسبب عدم وجود إجراءات أمنيّة في المكان، وقد قُبض على شخص واحد فقط طوال مدة وجودي في الجامعة بعد أن فضحته لذة الخداع؛ لم يكن بيرنارد راضياً بتحدي السرقات المعتادة، وكان عليه زيادة الأخطار لكي يفخر بنفسه أكثر، ويظهر احتقاره للمحل، وينال الإعجاب الذي سعى إليه بين زملائه، فسرق الكتب الفنية الكبيرة التي صَعُب إخفاؤها، وبعد مرور وقت قصير، رفع الرهان من خلال سرقة ثلاثة أو أربعة كتب في الوقت ذاته، لكنه ما زال يشعر

أنّ ذلـك سهل، فبدأ بمضايقة موظفي المحل، ولـم يحاول تخبئة الكتب المسروقة، فوضعها تحت إبطـه، وأخذ يحوم حول موظف الصندوق في تحدّ للموظف لسؤاله عنها، وحفزته لذة الخدعة أكثر لتجربة القدر، فقدمت العلامات السلوكية للذة الخداع جزءاً من الوشاية، وتم الإمساك به. عُثر عنده آنذاك قرابة خمس مئة كتاب مسروق في غرفة سكنه. أصبح بيرنارد مليونيراً فيما بعد يعمل في تجارة محترمة تماماً.

هنـاك طرق أخـرى لتعزيز لذة الخداع، فإذا كان الشخـص المخدوع يصعب خداعه، فقـد يضيف ذلك بعض التشويـق، ويسهل الشعور بلذة الخداع، إضافـة إلى أنّ معرفة وجود آخريـن يعرفون ما يجري يزيد مـن احتمالية الشعور بلذة الخداع. لـذا، يجب ألّا يكون أحد موجـوداً إلّا إذا كان متنهباً لوجود كذب مـا، وإنْ وُجد آخرون يستمتعون بأداء المخادع، فقد ينتـج لدى الـكاذب أقصى لذة خـداع، وأصعب وقت في كبح علاماتـه، فعندما يكذب صبي على آخر بحضور آخرين من رفاقه، يستمتع الكاذب بمراقبة تسليته رفاقه بحيث تندفع لذته أكثـر فأكثـر، وبذلك يكون قد أنجز مهّمته كلّها على أكمل وجه، يستطيع لاعب البوكر الماهر السيطـرة على علامات لـذة الخداع، وإذا كانت أوراقه رابحة، فينبغـي لتصرفاته أن تضلل الآخرين ليعتقدوا أنّ أوراقه ليست جيدة، كي يرفعوا رهاناتهم ويستمروا باللعب، حتى عندما يعـرف المتطفلون من منافسيه على الطاولة ما يقوم بـه من خداع، فإنّ عليه كبح دلائل لذة الخداع لديه، وقد يكون هذا أسهل، عن طريق تجنب التقاء عينيه بعيون منافسيه.

قـد يكـون بعض الأشخاص أكثر عرضة للذة الخـداع من غيرهم، ولكـن لم تتم حتى الآن دراسـة مثل هؤلاء الأشخاص، أو حتى التحقـق من وجودهم. ومع ذلك، يتّضح أنّ بعض الأشخاص يتبجّحون أكثر من الآخرين، ويكونون أكثر عرضة لهذا النّوع من اللذّة.

قد يشعر الشخص في أثناء الكذب بلذة الخداع، وذنب الخداع، والخوف من الانكشاف، جميعها مرة واحدة أو على التوالي، لنأخذ لعبة البوكر مثالاً مرة أخرى، يظهر الخداع عندما تكون أوراق اللاعب غير جيدة، ولكنه يتظاهر بعكس ذلك حتى يضاعف الآخرون رهاناتهم، وقـد يعتريـه خوف من انكشاف أمـره إذا كان الرهان مرتفعاً، وفي أثنـاء مشاهدة المخادع للاعبيـن يذعنون مكتفين بما قدمـوه، قد يشعر أيضاً بلذة الخداع؛ ولأنّ المعلومات المضلِّلة مشروعة هنا، فلا وجود لذنب الخداع طالما لم يغشّ لاعب البوكر المخادع.

قـد تشعر المختلسة بالعواطف الثـلاث؛ اللذة في طريقة خداعها لزملائها الموظفين وربّ عملهـا، والخـوف من أيّ لحظة تفكر فيها أنّ هناك من يشـكّ فيها، وربما الذنب حيال خرق القانون وخيانة الثقة التي تتضح من تعاملات الشركة معها.

بإيجاز، تكون لذة الخداع في أعلى مستوياتها عندما:

- يكون المتلقّي تحديّاً يصعب خداعه.
- تكون الكذبة تحديّاً بسبب ما يجب إخفاؤه، أو بسبب طبيعة ما يجب تلفيقه.
- يراقب آخرون الكاذب، أو يعرفون عن الكذبة ويقدرون مهارته في الأداء.

يمكـن أن يظهر كلّ من الذنب، والخوف، واللذة فـي تعابير الوجه، والصوت، وحركات الجسـد مهمـا حاول الكاذب إخفاءها، قد تنتج المقاومة لمنعهـا من التسرب حتى عندما لا يكـون هناك تسرب لفظي قرينة على وجود الخـداع، يفسّر الفصلان التاليان كيفية الكشف عن الخداع من الكلمات، والصوت، والجسم، والوجه.

obeikandl.com